النتاج الجديد

عبقرية البحتري

تأليف الاستاذ
عبد العزيز سيد الاهل

منشورات دار العلم للملايين

سبق لي ان قرأت للاستاذ عبد العزيز سيد الأهل كتاب « عبقرية ابي تمام » وودت آنذاك ان اسجل خواطري ولكن اسباب العيش اليومي حالت دون ذلك .

اما وقد صدرت عبقريته الثانية فقد وجدتني مدفوعاً الى الكتابة بغمرة من هذا الاحساس الحلو الذي ترف به النفس والاعطاف حين تقع العين على مثل ما وقعت عليه في هذا الكتاب .

لقد حاول المؤلف ان يستعرض في صفحات قليلة حياة الشاعر وفنه ثم مشهوراته فوجد من قلمه وجودة اختياره وحسن تنسيقه ما ساعده على تركيز هذا كله في نحو عجيب معجب .

حدثنا عن مغامرات البحتري في حقل الشهوات والمتع ثم مزاجه واحتياله على اسباب الشهرة والعيش وعلاقته باستاذه ابي تمام ثم إجماع الناس على تقديره . وقد وفق في هذا كله ؛ الا انني اخالفه فيما ذهب اليه من تعليل لتقلب الشاعر في علاقاته بالخلفاء والممدوحين وشدة اعجابه بنفسه . فوجد ذلك فيما اسماه « بالمزاج الحاد » وقد كنت احب ان يتعمق الاستاذ في دراسة مجتمع البحتري والاوبئة النفسية العامة التي طغت على الناس آنذاك . انه مجتمع تعاقبت عليه الهزات السياسية والغزوات الفكرية والاجتماعية حتى كاد يصيب الناس من ذلك انشداه متتابع . فلا يضيقون من آثار هزة يُغتال بها خليفة ويعزل آخر حتى تستشري فيهم مفاتن المجون ومتارف الفسق ومذاهب الفلسفة المتطيرة المتشائمة . ولا غرابة في ذلك فقد كان مجتمع البحتري يصطخب باشتات من الافكار والشعوب والانقلابات السياسية وهي ميزة القلق النفسي والخلقي الذي يحسّ به ابناء الحضارة حين يشعرون بفشل القيم الاتباعية التي كانوا بها يؤمنون . ومن نتائج هذا النوع من القلق ما اسماه احد الكتاب الفرنسيين « مرض العصر » . والبحتري من بين معاصريه واحد من هذه الآلاف التي تزحف من الارياف والملحقات وفي خيالها ثروات العواصم والحواضر الكبرى واحجادها وشهرتها . فاذا ما استقر افرادها فيها ضاع اكثرهم في غيابات مدها وجزرها وبقي اقلهم مرتكزاً الى طرف هيأه لها حظ او وفرتها له عبقرية . ولكن هذا او ذاك يخسران سذاجة الريفي وجمال نفسه ويغزوها تشاؤم المثقف وقلقه وطباعيته ثم استخفافه بالقيم الاخلاقية .

كذلك نستطيع ان نفسر موقف البحتري في تقلبه وتلونه . انه ظاهرة نفسية خلقية . اما ما يسميه المؤلف « وفاء للمتوكل » فانني اجد فيه تريث المتربص وضعف ثقته بقدرة المتآمرين على الامساك بزمام الحكم . لا سيما وان مثل هذا الحادث لم يكن قد عُرف بعد في تاريخ السياسة العباسية . ولما وجد البحتري ان الاحداث قد استقامت للحكام الجدد ، وان ردة الفعل لم تحدث كما كان ينتظر ، سار مع السائرين غير متحرج ولا متأثم . ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك ممكنة لهذا اللون الجديد من الحياة ومساعدة على إضعاف القيم الاخلاقية وابعادها عن حساب الناس وظنونهم في حقل المعاملة والعلاقات الاجتماعية والسياسية . وكيف لا يكون ذلك وقد عاصر البحتري تسعة من الخلفاء خلال نيف وثلاثين عاماً ، بين معزول ومقتول ومبعد عن السلطان الفعلي .

ثم انتقل المؤلف الى الفصل الثاني فحدثنا فيه عن مسالك طريقة البحتري . فكان حديثاً ممتعاً ودالاً في الوقت نفسه على عميق ادراك المؤلف الجليل للقيم التعبيرية واللفظية ، وقد اوفى على الغاية حين بحث في تنضيد المعاني ومعراج الرقي وما اسماه « باللفظ مع اللفظ » .

ورجائي ان يسمح لي بمشاركته في وضع البحتري موضعه من هذه الناحية ، فالبحتري شاعر الحضارة المترفة التي تتجسم في اللفظ السمح والتعبير المونق والصورة الواضحة الحلوة كما تتجسم في جمال العمران وتنسيق الغدران وملاعب الفتيات والفتيان وقصور كأنها بناء الجان . والى جانب هذا الجمال الذي يظهر في حقل الادب تجانساً جميلاً وتنضيداً للمعاني موفقاً ، نجد السطحية في التفكير والرتابة والسذاجة في الطباق والتجنيس ، ولا سيما الطباق الذي هو في نظري محك الالتماع في خيال الشاعر وذهنه . وطباق البحتري يخلو من التجديد

والعمق والتعقيد الذي يمليه فكر نير وثقافة غنية ويحيطه بما اسماه الدكتو شوقي ضيف « بالغموض الفني » .

والمعروف ان البحتري قد حاول تبرير عجزه والدفاع عن طريقته بان صب هجومه على ناقديه وخصومه في قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

فاستشهاده بذي القروح حجة عليه لا له . فقد كان امرؤ القيس يصور بيئته وقد نجح في ذلك نجاحاً أثار الناس وأعجبهم. اما البحتري فقد عاش في بيئة غير بيئة سابقه ، وأحاطت به ملابسات جديدة كان من المفروض فيه ان يرتكز اليها في نظم شعره وإبراز أصالته الفنية المتحضرة المتقفة . ولئن جاز ان اقارن البحتري في شعره السهل الممتع الذي يثير به اعطاف القارىء ويغزو خياله في سرعة ويسر ، بأبي تمام في شعره الذي جعل الفلسفة والثقافة مرتكزاً اساسياً له واستغلها وسيلة إلى تعقيد نتاجه وتعميقه وتسجيل القيم الفكرية في صوره اللونية والتجسيمية وفي طباقه وجناسه ، إذا جاز لي ان اعقد مثل هذه المقارنة فمن الممكن ان اعتبر فن البحتري شبيهاً بهذه الموسيقى الراقصة الحلوة التي يستجيب لها الجسد في حركات موقعة تثير في النفس روحاً وطمأنينة وخيالات مسلية لذيذة ، ولكنها لا تنمي الشخصية او تعمقها، كما ان من الممكن ان اعتبر فن ابي تمام شبيهاً بالموسيقى الاتباعية التي لا تقصد فيما تقصد هذا التوقيع الساذج الحلو الذي يتناول النفس في سهولة ويسر بل تتخذ لنفسها طرقاً معقدة غامضة تغوص فيها على معاني الحياة في ادق لفتاتها والحقائق في اغمض خباياها ثم تخرج الى السامع وقد ألبست جواً من الغموض والتشويش الخارجي الذي تستثقله الأذن تاديء الرأي حتى اذا تعمقها الذهن ولمس مناطق الجمال فيها واكتشف اسرار تعبيرها وقع منها على صيب لا يتناهى مدده من الجمال والثروة والأصالة .

وها أنا اورد المؤلف الكريم نصاً اخترته في غير قصد قاصد لكل من الشاعرين فيتضح له ما عنيته . يقول البحتري :

مني وصل ومنك هجر وفيَّ ذل وفيك كبر
قد كنت حراً وانت عبد فصرتُ عبداً وانت حر
انت نعيمي وانت بؤسي وقد يسوء الذي يسر

فهل يجد الاستاذ في هذا الطباق ما يدل على عمق فني خاص؟ وهل يرى فيه غير تقطيع لفظي وصوتي ؟

وهاك ابا تمام يصف حريق عمورية في قصيدته المشهورة التي مدح بها المعتصم فهو يقول :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها او كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد افلت والشمس واجبة في ذا ولم تجب

وظني ان الاستاذ المؤلف في غير حاجة الى ان اسجل له مواضع الاصالة في هذا . وان كنت اعلم ويعلم هو ان هناك نصوصاً اخرى كثيرة تصور بقوة اصالة الشاعر المثقف المتحضر النموذجي .

وانني استميحه عذراً لهذا التطويل فقد احب ان يعالج هذا الجانب من فن البحتري ، لانه يظهر مدى استجابة الشاعر لمطالب البيئة المثقفة والمجتمع المتربع على قمة التطور .

اما الفصل الثالث الذي استعرض فيه المؤلف مشهورات الشاعر وجانباً من حكمه واوصافه ، فلست اظنني في حاجة الى التعليق عليه بخير من ان أهنئه على حسن انتقائه وصواب استنتاجه ودقته في معالجة الابحاث شأنه فيه هو نفسه في الفصلين السابقين .

اما اسلوب المؤلف فهو اسلوب مجوّد يصح ان نجد فيه نموذجاً حياً للابحاث الادبية . ورجائي كبير ان يعتبر ما كتبت مشاركة مخلصة في توضيح جانبين من جوانب فن البحتري العظيم وشخصيته .

رمضان لاوند

١ — ديوان الملاط

للشاعر شبلي الملاط

لا ادري إذا كان احد من الجيل الجديد يعتبر الملاط اليوم شاعراً ، بيد ان الملاط كان شاعراً في الماضي ، شاعراً عربياً أصيلاً ، يمثل شعره القوة والجزالة والاخلاق العربية النبيلة .

كان شاعر العروبة في لبنان وانشودة الارز المفدى ؛ ناب عن وطنه في عدة حفلات عربية ، فكان له في كل بلد من بلاد

العرب وقفة وصوت يذهب له في العـــالم دوي يرفع من اسم لبنان ، ويهتف بنبوغ ابنائه ، أيام كان لبنان معقـل الحركات العربية ومنطلق كل نهضة في هذا الشرق العربي الذي يدين لهذا الوطن برؤيته النور .. هذا الوطن الذي كان في مطلع هـذا القرن منارة هدي وسماء وحي، يطلع منها الشعراء والمفكرون امثال مطران وشبلي وفياض والاخطل والشميّل وغيرهم .

نشأ الملاط في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، الوقت الذي كان فيه الشعر مجرد أوزان ، يحاكي بها نظاموها أساليب القدماء ، ويصبون فيها قوالب من التعابير جمدت فيها الحيـاة وتعطل الحس فأصبحت جوفاء لا تومىء بحركة ولا تقصـد الى مدلول بل جلّ هدفها ان تكون « معجزة بلاغيـــة » كهذه المعجزة التي اثبتها الشاعر في مقدمة ديوانه لأحد أئمة البيان في ذلك الزمان وجاء فيها :

« الشعر قول ثقيل .. وعبء عقلي باهظ .. لا يستقل بـه سوى الحناذيذ القرّح .. والمغاوير السبّق .. ولا يجيـــده الا الناخعون الكمّل .. اولو القوة الباهرة .. والمنة الوثيقة التي لا تتاح الا للآحاد ولا يؤتاها الا الافراد » الى آخر ما جـــاء في هذه المعجزة .

في هذا الجو وعلى يدي امثـال هؤلاء الكتاب « البلغاء » السبّق الحناذيذ الناخعين الكمّل نشأ شبلي الملاط، فراح يطبع على غرارهم وينشر قوالبهم ، حتى بلغ في ذلك مبلغاً فاق فيـه من عاصره وحملهم على الاعتراف له بالاصالة ومتانة الديباجة ، والحبكة والرجولة والشموخ . غير ان شاعرنا لم يكتف بمـا وصل اليه من تقليد القدماء فحاول جاهداً — يعلم الله — ان يجدد في الشعر فطرق باب القصص وحمل نفسه على الخروج من حظيرة التقليد فكان له فضل البدء باليقظة التي مهدت لنا الدرب .

ومن الظلم الفادح ان نقيس شعر شبلي المـــلاط بمقاييسنا الحاضرة فهو شيخ يجاوز عمره السبعين عجز عن اللحاق بالركب فأعطانا هذا الديوان الذي هو بمثابة وثيقة تاريخية ندرس فيهـا حياة عصر سابق كان فيه شاعرنا يعدّ بين فحول الشعر في العالم العربي أمثال شوقي وحافظ ومطران وسواهم .

٢ — مصرع الديموقراطية في العالم الجديد

منشورات «دار العلم للملايين» — ١٦٠ ص

هذا كتاب من سلسلة كتب مبسطة لنشر الثقافة العامـة ، اختار موضوعاتها ونقلها الى العربية الاستاذ منير البعلبكي وتولت القيام بنشرها « دار العلم للملايين » .

طبع الكتاب اول مرة سنة ١٩٥٠ ، واعيد طبعـه خمس مرات في مدة لا تزيد على السنة ، كما نقل الى اكثر اللغـــات الحية . مؤلفه كاتب امريكي مشهور شاهد «مصرع الديمقراطية» في مهد الديمقراطية ، وانكر على بلاد الحرية خنق الحرية خنقاً لا رحمة فيه ولا هوادة فشهد في كتابه هذه الشهادة على الاهوال والمتاعب وألوان التعذيب التي اصطنعتها وتصطنعها الحكومة الامريكية لمعاقبة كل من تشتمّ منه رائحة التمرد على نظامها أو التنفس في الهواء الذي يهبّ من غير أرضها .

وفي فصول رهيبة موجعة يقص عليك الكاتب «ألبرت كان» قصة هذا الصراع العنيف — الذي يرجع تاريخه الى عقب الحرب الكونية الاولى بل الى فور توقيع هدنة ١٩١٨ — بين قوى الرجعية والظلام وقوى التقدم والنور .. بين الشعب الاميركي الذي تخيل انتهـــاء الحرب مطلاً لفجر السلام وامتداده على الارض .. ورأى في كلمات ولسن شعاع خير واطمئنان وبركة ، وبين اولئك الصناعيين المشتغلين بالسياسة والمتاجرين بالحرب .

لقد هالت هذه الحال زعمـــاء الحرب فاعلن لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني في مذكرة سرية : « ان اوربة تغلي بروح الثورة. والواقع ان النظام القائم اليوم بمظاهره السياسية والاجتماعية والاقتصادية جميعاً ، امسى موضع شك الجماهير من اقصى اوربة الى اقصاها » فكيف السبيل الى خنق روح الثورة والاحتفاظ بالوضع الراهن ؟

السبيل الى خنق روح الثورة والاحتفاظ بالوضع الراهن تلقاه في كتاب « مصرع الديموقراطية » الذي يصف لك النشاط الضخم الذي تقوم به وزارة العدل الاميركية ضد الاحرار ؛ ويقدم لك تقارير عن التصرفات غير الشرعية التي ارتكبتها هذه الوزارة — وزارة العدل — ثم يبين تلك الطرق الشيطانية التي اصطنعت لتعذيب الرجال في « فورت واين » مع نزلاء غرف العقاب ، وكيف تنسف بيوت الزعماء النقابيين او تحرق في مدينة بعد اخرى من قبل الفرقة السوداء « التي تقترف جرائم القتل لشهوة القتل ليس غير » ، ويلج بك من ثم الى داخـــل امبراطورية فورد ويطلعك على اعمال كتائبه المسلحة لتشاهد بنفسك اي ارض تتلقى ظهور العمال المعذبين المضطهدين مهيضي الجناح، ويصور لك كيف تقتبس واشنطون «اساليب الطغيان

النازي باقرار مرسوم الولاء الذي ابتـــدع لكبت الحرية الفكرية تحت ستار القضاء على الخطر الشيوعي في الوطن » ، فلا يسعك بعد ان تقرأ هذه المآسي الا ان تكفر بالحرية الديمقراطية وبتمثالها وبكل ما يتلفظ باسمها ، لكنك تظل مع ذلك مالكاً نفسك حتى تبلـــغ الفصل الذي كتبـه المؤلف عن مأساة الزنوج ، فيسيطر عليك الرعب وتمسّك الصاعقة عندما تعلم « ان واحداً من كل عشرة امريكيين محكوم عليهم منذ ساعة الميلاد بأن يظلوا طوال حياتهم مواطنين من الدرجة الثانية ، مواطنين خاضعين لأبشع ضروب الكبت والاضطهاد والمهانـــة » . ثم تضيف الى هذه المعلومات معلومـــات اخرى تبين لك « ان اضطهاد الملونين هو في الواقع جزء من سياسة الدولة » .

هذه هي امريكة وتلك هي اعمال القوى الرجعية التي تعمل على شن الغارة على حركة تقدمية حرة مما حمل النائب مايرلندن ان يقول في خطاب له بالكونغرس سنة ١٩١٩ :

« سيدي الرئيس ! ان شبح الشيوعية ليتهدد العالم . وان كل من تلقاه سياسياً كان ام واعظاً ام صحافياً ام رجل اعمال ليحدثك عن هذا الخطر ، ولكن أسوأ ما في الأمر ان كل فكرة جديدة ، كل اقتراح جديد ، كل نزعة تقدمية جديدة غدت تنبز للتو والساعة بلقب الشيوعية وهكذا لم تعد ثمـــة ضرورة لمناقشة أيما رجل يدعو الى فكرة جديدة . بحسبك ان تقول : هذه شيوعية وينقضي الأمر » .

هذا ولن اترك القلم قبل ان اهنيء الاستاذ البعلبكي ناقل هذا الكتاب على براعته في الترجمة وإتاحته الفرصة للجماهير العربيـة لتثقف ثقافة توجهها وتزرع النور في دروبها .

احمد ابو سعد

صدر حديثاً عن :

دار بيروت — للطباعـة والنشر — بيروت

الاسلام في نظر الغرب : ترجمة الدكتور اسحاق موسى الحسيني

هتلر في مباذله : « لويس الحاج

تغلب على الخجل : « عبد اللطيف شراره

هذه هي الرأسمالية : « محمد عيتاني

في ظلال النبوة : بقلم محمد سليم رشدان

قصص مختارة من الأدب الاسباني : ترجمة نجـــاتي صدقي

شاعران ..

— شبابُها وقلبي —

. . . وتغمزُ جارتي ، أتقولُ شعراً ؟
فـــلم أنبسْ ، كأنَّ الامْرَ سرٌّ
وتسألُ ، ان أقولَ الشعرَ ، فيهـــا ؛
وملْتُ بها ، أتمتِمُ : أنتِ شِعْرُ
على شفَتيْكِ ، مُتَّكأُ المعاني ،
وفي الهُدْبَيْن ، قافيـــةٌ ، وبَحْـرُ
ونَهْدُكِ — آهِ ظلُّ النهـدِ — حُلْمٌ
تَفَتَّحَ في الصِّدارِ ، فقيلَ فَجْرُ
دَمُ العِشْرين ، مُنْطَلِقٌ ، يُغنّي ؛
كما غنَّى ، مـع النَّسَمات ، زَهْرُ
خُطَىً ، نَغَمٌ ؛ ونَحْرٌ مستجيبٌ ؛
سَرَى ، فالأفْقُ ، أنَّى سِرْتِ ، خَمْرُ
فامَّا قُلْتِ ، بَرْعَمَ كلُّ حَرْفٍ ،
وماجَ — فَهَلْ سَقَيْتِ اللفظَ — عِطْرُ

*

يرودُ المُنْحَنى ، والسَّفْحَ ، شعري ؛
فَيَعْقِدُ خَطْوَهُ ، خَدَرٌ ، وسُكْرُ !

*

أُناضِلُ ، في سبيلِ العَيْشِ ، يَوْمي ؛
وأرجِـعُ ، والدَّمُ المكدودُ ، قَفْرُ
وتبتسمين . . . فالدنيـا ربيـعٌ ،
يعربدُ في دمي . هل انتِ سِحْرُ ؟
شبابي ، حالَ خَلْفَ دمي ، حُطاماً
ولُحْتِ . . . فالحُطامُ المَيْتُ ، نَضْرُ

*

سَفَحْتُ الاربعينَ ، وقلتُ حَسْبي ؛
فَضَجَّ القلبُ : هذي (الحَسْبُ) نُكْرُ
الى أنْ تَنْتَهي ، فَضَمَمْتُ قلبي ،
أُقَبِّلُهُ ، وقلت : وأنتَ شِعْرُ .

دمشق — **وصفي قرنفلي**